

المحاضرة رقم 10: السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر

انطلق الاحتلال الفرنسي للجزائر في جويلية 1830 متذرعاً بـ "حادثة المروحة" المفتعلة، ليواجه مقاومة وطنية شرسة قادها الأمير عبد القادر الذي وضع لبنات الدولة المعاصرة، وأحمد باي في الشرق، تلتها ثورات شعبية قادها شيوخ الزوايا والقبائل. وعلى الرغم من استعانة فرنسا بتقارير الجواسيس والوسطاء الاقتصاديين لتقدير الموقف بدقة، إلا أن صمود الجزائريين أفضل التوقعات الفرنسية بالحسم السريع؛ فتعطل المشروع الاستيطاني لسنوات، وأجبرت سلطات الاحتلال على مراجعة حساباتها وتغيير استراتيجيتها من المواجهة العسكرية الصرفة إلى انتهاج سياسات إدارية واقتصادية واجتماعية تهدف لإخضاع الشعب بأساليب جديدة.

1. السياسة الإدارية (الترسانة القانونية)

سعت فرنسا لفرض سيطرتها عبر جملة من القوانين الجائرة، منها:

- ❖ قانون 24 جوان 1834: ألحق الجزائر بفرنسا إدارياً لإنهاء حالة التردد حول مصير المستعمرة.
- ❖ مرسوم 1848: اعتبر الجزائر مقاطعة فرنسية وجزءاً من التراب الفرنسي وساكنيها مواطنين فرنسيين.
- ❖ قانون كريميو 24 أكتوبر 1870: منح الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين في الجزائر لاستمالتهم وإشراكهم في الإدارة، ليصبح اليهود في الجزائر يتمتعون بكل الحقوق المدنية والسياسية للمواطن الفرنسي بينما أعتبر العرب رعايا فرنسيين، من بين مائص عليه: منح الجنسية الفرنسية لليهود المقيمين بالجزائر بصفة جماعية دون التخلي عن عقيدتهم الدينية.
- ❖ قانون الأهالي (الأنديجينا) 1871: صدر كرد فعل على ثورة المقراني، وهو نظام عقابي استثنائي يفرض السجن والمصادرة دون محاكمة، مما أدى لموجات هجرة واسعة.

❖ المحاكم الرادعة 1902: أنشئت لقمع ثورة "عين الترك" بوهران، ومنحت المحاكم صلاحيات النفي والسجن دون حق الاعتراض.

❖ قانون جونار: اعتبر الجزائر ملكية فرنسية خاصة وتضمن إجراءات عقابية ضد الجزائريين (مثل أحداث عين بسام 1906).

* قانون التجنيد الإجباري 1912: أجبر الجزائريين على القتال في صفوف الجيش الفرنسي (الحرب العالمية الأولى) مقابل وعود وهمية بالحريات.

2. السياسة الاقتصادية

هدفت إلى إفقار الجزائريين وتحويل الاقتصاد لخدمة المستعمر من خلال:

❖ مصادرة الأراضي: عبر قوانين مثل قانون 1871 (الحجز) الذي صادر أراضي الثوار، وقانون وارني 1873 لتفتيت الملكية الجماعية للقبائل.

❖ التبعية المالية: ربط العملة الجزائرية بالفرنك الفرنسي (1851)، وإنشاء بنوك استعمارية (مثل بنك الجزائر 1851، والقرض الليوني 1863) لتمويل المستوطنين.

❖ تدمير الزراعة المعيشية: إغراق الأسواق بالمنتجات الفرنسية وتحويل الأراضي لزراعة الكروم (إنتاج الخمر) بدلاً من الحبوب.

3. السياسة الاجتماعية

استهدفت فرنسا الهوية الوطنية عبر:

❖ الإبادة الجماعية: ارتكاب مجازر وحشية (مثل مجزرة مغارة الفراشيش ومجزرة قبيلة العوفية).

❖ الإثقال بالضرائب: فرض ضرائب تعسفية (الزكاة، العشر، اللزما) لإذلال السكان.

❖ النفي والتهجير: نفي قادة الثورات إلى مناطق نائية مثل "كاليدونيا الجديدة"، ومن بين القرارات التي وضعتها فرنسا للهجرة نذكر:

- قانون 16 ماي 1874: أصدرت السلطات الفرنسية هذا المرسوم بهدف منع الهجرة الجزائرية إلى فرنسا دون الحصول على إذن خاص بالسفر والعمل هناك.

❖ الفرنسية: محاولة طمس الأسماء العربية واستبدالها بأسماء فرنسية، وفرض الحالة المدنية (1885) لتفكيك الروابط الأسرية.

❖ التدمير الصحي: أدى إهمال المستعمر لانتشار الأوبئة والمجاعات (خاصة بين 1865-1867) التي حصدت أرواح الآلاف.

4. السياسة الدينية والثقافية

أ/ الجانب الديني:

- دعم التبشير المسيحي (بقيادة الكاردينال لافيغري) واستغلال الفقر والحاجة.
- تحويل المساجد إلى كنائس أو ثكنات عسكرية (مثل جامع كتشاوة).
- التضييق على ممارسة الشعائر الإسلامية والعلماء.

ب/ الجانب الثقافي والتعليمي:

• محاربة التعليم العربي وتقليص منابعه وذلك بمصادرة أملاك الأوقاف (مثل: أمرية 21 أوت 1839 حيث قسمت الملكية إلى أملاك وطنية، أملاك الإحتلال والأملاك المصادرة).

- فرض الرقابة الصارمة على الزوايا والكتاتيب القرآنية.
- اعتمدت فرنسا سياسة "التجهيل"؛ حيث صرح أليكسي دو توكفيل بأن فرنسا جعلت المجتمع المسلم أكثر جهلاً مما كان عليه قبل وصولها.
- جعل اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية الوحيدة وحصر التعليم العربي في المستويات الابتدائية الدنيا فقط. ففي 6 أوت 1850 صرح الجنرال شرام وزير الحربية في باريس قائلاً: "الابتدائية الدنيا فقط. ففي 6 أوت 1850 صرح الجنرال شرام وزير الحربية في باريس قائلاً:"

أن الظروف الحالية، وبعد حرب دامت 17 سنة، فإنه الآن يتعين على فرنسا القيام برسالتها الحضارية، بإرساء قواعد التعليم الفرنسي في الجزائر".

5. انعكاسات السياسة الاستعمارية

تركزت هذه السياسات آثاراً عميقة امتدت لما بعد الاستقلال، منها:

- ✓ تفكيك البنية القبلية والاجتماعية وزرع مجتمع غريب (المستوطنون).
- ✓ انتشار الجهل والامية نتيجة سياسة التجهيل المتعمدة.
- ✓ التضيق على الدين الإسلامي والقضاء الشرعي.
- ✓ تدهور الوضع الاقتصادي، وانتشار الهجرة الخارجية (نحو المشرق والشام)، والوقوع في فخ التخلف والتبعية.